

انفتاح النقد الروائي على الدراسات البينية

Openness of narrative critic to inter-studies

الدكتور محمد سعدون*

جامعة محمد بوضياف – المسيلة (الجزائر)

saadoun54@hotmail.fr

تاريخ الارسال 2022/07/16 تاريخ القبول 2022/08/01 تاريخ النشر 2022/09/23

ملخص:

تشكل الدراسات البينية في الحقل النقدي المعاصر أعمالاً رائدة في العصر الحديث، ومهما كانت البدايات في هذا المجال غير مكتملة، إلا أن الأعمال المنجزة تعد خطوة إيجابية ومعتبرة في الساحة النقدية العلمية الأكاديمية، وربما يرجع السر في البطء الشديد لإنجاز أعمال نقدية هامة في هذا الحقل الحديث، هو قلة الأعمال الروائية الإبداعية التي تتحقق من خلالها عملية التكاثف والتعاون بين المعارف والفنون.

ومن هذا المنطلق فإن التضافر بين النقد والإبداع يصبح أمراً ضرورياً لا محيص عنه، فلا يكتفي النقد البيني بالدراسات المبسرة التي تعالج الموضوع أفقياً، دون أن تغوص فيه بشكل عمودي متعدد غير أحادي، كما لا يجوز للروائي أن يظل متشبثاً بالأسس الكلاسيكية التي لا تنفتح على المعارف الأخرى المختلفة لتوظيفها وشحنها بالأبعاد والرؤى الإبداعية والفكرية والفلسفية المشبعة بقيم الانفتاح والتعدد.

الكلمات المفتاحية: البينية، الأكاديمية، النقدية، الفنون، المعارف.

Abstract:

Inter-studies in the contemporary critical field constitute pioneering works in the modern era, and whatever the beginnings in this field incomplete however these works completed are a positive and significant step in the critical scientific academic arena. Perhaps the secret return very slowly for completed important critical works, it is the lack of creative novels through which the process of condensation and cooperation between knowledge and arts is achieved.

From this point, the synergy between criticism and creativity becomes necessary and inevitable, inter-studies is not enough with premature studies, which deals the subject horizontally, without diving vertically, but the novelist must not be held to classical foundations, which does not open to other knowledge. In order to employ and fill with dimensions and creative intellectual and philosophical visions, filled with values of openness and diversity.

key words: Inter-studies, academic, critic, arts, knowledge.

المقدمة:

الحقيقة أن الدراسات البيئية وإن لم تكن موجودة بهذا المصطلح المعاصر المتعارف عليه في وقت سابق للحدث وما بعد الحدث، إلا أن النظرات البيئية المعرفية والثقافية، لم تخل من أي دراسة في تفسير وتحليل أي خطاب، وإن كانت تلك النظرات الدقيقة خفية تتخلل كل تفكيك أو شرح لخطاب معين سواء أكان ذلك الشرح يتعلق بالموضوع أم المنهج، ومن هذا المنطلق فإن إعادة النظر في تعمق تلك الدراسات السابقة أصبح أكثر من ضرورة للإفادة من تلك البحوث التي ظلت مبتسرة ومنطوية على مفاهيم متعددة لتفسير الخطاب الذي بقي حكرًا على التأويلات الأحادية المتخصصة المتعالية المتكتمة على المعطيات البيئية المندسة في طيات الإبداع دون إظهارها للعلن.

1. توجه النقد الروائي إلى الدراسات البيئية:

إن زحام المعارف في الوقت الحاضر أدى بشكل قسري ومفروض إلى الصدع بالحقيقة العلمية، فافتك التوجه الجديد للمعارف في تنوعها وثرائها وكثافتها الخطاب الأدبي والإبداعي من بوتقة الاحتكار الذي فرضته تلك التخصصات والدراسات المتعالية.

وكانت الدراسات النقدية المختلفة المعاصرة أولى بهذا التوجه سيما في المناهج النسقية التي تجاوزت السياقات الأحادية الاجتماعية والتاريخية والنفسية، وتجلت هذه الانطلاقة الجديدة في المناهج البيئية وما بعد البيئية، وكاتب الشكلائية formalism رغم انغلاقها في البداية على التركيز على الواجهة اللغوية في استكناه أدبية الأدب، إلا أن تحررها فيما بعد على يد مؤسسها رومان جاكسون R.Jacobson أدى إلى فتح المجال أمام هذه الدراسات وإن كان ذلك التوجه الجديد للشكلائية يمثل البدايات الأولى لهذه الدراسات، ثم تواصل البيئية هذا الدور الذي توسعت فيه كثيرا، إذ "ذهبت أبعد من ذلك لأنها أرادت الكشف عن باطن الظواهر أو البنية التي تؤسسها"¹، وبانتقال النقد من السياقات المعهودة التاريخية والاجتماعية والنفسية إلى دراسة الأنساق المختلفة للغة، أصبح النسق يمثل مركزية النص، ثم انتقل النقد من الخطاب الأدبي إلى الخطاب الثقافي في عملية جريئة للتخلص من النخبوية النقدية المتعالية، وهذا التوجه جاء متساوقا مع التحولات الطارئة على الثقافة الإنسانية، وأصبح النقد مهموما بالبحث في حياة الناس اليومية من خلال الرواية وغيرها من الأجناس الأدبية، وذلك من أجل بناء تصور معرفي متكامل، ولا شك أن هذا قد شكل ثورة فكرية جذرية قلبت موازين النقود الأحادية والدراسات المتخصصة المحتكرة للتفسير والتعليل والشرح والتحليل.

ومن ثم أصبح النقد يدعو إلى مجالات أخرى لتحليل الخطاب، وهو ما يسمى بالمزج التصوري أو الآلية الذهنية الشبكية، ويعني هذا المصطلح استحضار المعارف في الذهن دفعة واحدة منصهرة بشكل كلي داخل التصور أو الذهن لتفسير ظاهرة أو قضية من قضايا الخطاب.

وهذه الدراسة الجديدة تحيل الدراسات المعاصرة إلى الفكر المركب وإبستمولوجيا التعقيد التي يفرضها الواقع الإنساني المعيش، والدراسات البينية لا تتعلق بالموضوع فحسب، بل تمثل ظاهرة معرفية موضوعا ومنهجاً، فهي دراسات تسعى إلى إيجاد الحالات الوسطية بين شيئين مختلفين، أو أشياء مختلفة تتضمن علائق خفية غير ظاهرة على مستوى الأشكال الأدبية والإبداعية، وهذه العلائق غير محددة بجانب معرفي واحد بل قد تكون تلك العلائق لغوية أو أدبية أو سياسية أو اقتصادية أو تاريخية، ومن شأن هذه الدراسة أن توسع الأفق النقدي وحتى الإبداعي، فمن الجانب النقدي يمكن أن يتوسع الناقد مستخدماً كل المعارف التي من شأنها أن تكشف عن الأنساق الإبداعية داخل النص الإبداعي، ومن الجانب الإبداعي يمكن للمبدع أن يفتح آفاقه الإبداعية على مختلف الأفكار والفلسفات والأبعاد الإنسانية المادية والمعنوية في آن، دون أن يسير في سياق واحد واضعاً نصب عينيه هدفاً وغرضاً معلوماً يسعى إليه فتكون كل المعارف والإيديولوجيات والفلسفات رافداً يغني ويثري به عمله الفني.

إن التراكم العلمي والتوسع الإبستمولوجي المعاصر أدى إلى هذه الحتمية في تفسير الأشياء وتحليل التعقيدات في الخطاب المعاصر حيث كانت التخصصات المغلقة المتعالية تمثل حواجز في تحليله والخوض فيه والبحث في جزئياته المكونة له، وظلت تلك الحواجز بين العلوم البحثية عائقاً ومانعاً في إيجاد الروابط والشائج الخفية العميقة المختلفة المتعددة المستكنة داخل الخطاب الأدبي والإبداعي، وأدى انفتاح الحقول المعرفية إلى الكشف عن عوالم لا تخصى داخل الخطاب الواحد، ومن ثمة فإن تجاوز اليقينيّات والحقائق الثابتة أفضى إلى انفتاح معرفي معاصر لا نظير له، وأزيجت الحواجز أمام الفكر المتطلع إلى الكشف عن الغوامض والأسرار التي انطوى عليها الفكر الإنساني المعاصر، وتجاوز النقد للقناعات الشخصية الثابتة التي كان يعتمد عليها جعلته يركز على إدراك الظواهر المعقدة، كما تخلص من الدراسات الشعرية المتمثلة في الجوانب النفسية والاجتماعية والخلفيات المعرفية التراكمية، كما تجاوز النقد الدراسات البينية الثقافية العمودية التي تركز على الظاهرة في بعد واحد في تحليل الخطاب، وقد قال ابن سلام الجهمي قديماً "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما يتقفه العين، ومنها ما يتقفه الأذن، ومنها ما يتقفه اللسان".²

وظل هذا المعنى سائداً في الأوساط متعلقاً بالأذهان لقرون عديدة ومن تلك المنطلقات التي تحدد مجال الدراسات البينية، فإن البحث يركز على تجاوز تلك الدراسات النقدية للرواية القائمة على الأحكام التقليدية المعتادة التي تستند على التخصص الواحد، حيث أصبح الغوص في استكناه أبعادها الفكرية والمعرفية من منطلق أحادي بالاعتماد على علم من العلوم أو مادة من المواد، لا يفي بالغرض في تحديد ما تحتويه مضامين الرواية من أبعاد وأنساق إيديولوجية ولغوية وتاريخية وفنية، ومن هذا الإشكال فإن الدراسات البينية قد وسعت الرؤية وفتحت المجال للدارسين لتوظيف عدة معارف في دراسة الخطاب السردى الروائي للخوض فيه من أجل استنباط كوامنه وأسراره وما ينطوي عليه من جوانب فكرية وفلسفية ولغوية.

لذلك فإن الدراسات المعاصرة تفرض على الدارس أن يطرح الإشكالية التالية في هذا المجال لتجاوز الدراسات السطحية في النقود التي تتناول الأعمال السردية، ومن ضمنها الرواية، ويتمثل هذا التساؤل الجوهرى في الطرح الآتي: ماهي مجالات المعرفة التي يمكن أن يوظفها النقد للوصول إلى الدراسة العلمية الحقيقية للرواية؟ ولا شك أن هذه الإشكالية تتفرع عنها أسئلة مهمة وهي: ماهي تلك المجالات المعرفية؟ وهل كل عمل روائي يتطلب بالضرورة تحديد مجموعة من ألوان المعرفة؟ وهل يمكن للروائي أن يوظف المعارف المختلفة بشكل ينم عن علم ودراية بتلك المعارف؟ وغير ذلك من الاستفهامات التي تستنطق النص الروائي من منظور الدراسات البيئية.

2. الرواية والتعالقات البيئية:

إن الرواية حقل ثري وخصب للدراسات النقدية البيئية المعاصرة، على الرغم من كون الفن القصصي السردى الروائي لم يكن متجذرا في التراث العربى بشكل فنى كما كان الشعر "أما فى الأدب العربى، فلم يكن فى قديمه للقصّة شأن يذكر، وكان لها مفهوم خاص ينهض بها، ولم يجعلها ذات رسالة اجتماعية وإنسانية"³، ومهما كان اختلاف النقاد المعاصرين فى شأن ظهور الرواية، فإن هناك من يرى بأنها بدأت بمرحلة كتب الأخبار التي ظهرت فى العصر الأموي وتواصل التأليف فيها إلى العصر العباسي، ويدل على ذلك ما كتبه وهب بن منبه وعبيد بن شربة من خلال ابن هشام، وتأتي مرحلة بعد ذلك أكثر تطورا للفن الروائي وتبدأ هذه المرحلة من أواخر العهد الأموي وأوائل العصر العباسي، ومن تلك الروايات قليلة ودمنة وسيرة ابن إسحاق وألف ليلة وسيرة عنترة وسيف بن ذي يزن وغير ذلك من الروايات⁴، وهناك من يراها بأنها وافدة علينا من الغرب وهي ليست من التراث.

ولا تهم قضية تاريخانية الرواية بقدر ما يهم البحث عن مدى ما تخضع إليه الرواية المعاصرة للدراسة البيئية، وما تتوفر عليه من زخم معرفي إبستمولوجي وما تحبل به من تعالقات نصية كثيفة بين العلوم والمعارف الأخرى المتعددة.

وما دامت الرواية العربية قد تبوأ مكانتها بين الآداب العالمية المعاصرة بفعل التأثير والاحتكاك، فإنه يمكن للدراسات النقدية الحديثة أن تجعل منها حقلا نقديا معرفيا يستجيب للدراسات المعاصرة، ويرى جان بودريار J.Baudrillard: "أنه ما من موضوع يوجد بمعزل عن مواضيع أخرى"⁵، وعلى الرغم من هذه الإشارة التي لا تخلو من الأهمية النقدية التي ينبغي أن ينتبه النقاد إليها، إلا أن هناك من الدارسين ممن يعارض هذه القضية ويراها مجرد محاولة لا ترقى إلى مستوى الأبحاث النقدية، فهي لا تعدو أن تكون جمعا لشذرات من أزمنة متعددة لا تشكل صميم الخطاب "أفكار الخمسينات والستينات والسبعينات، قد اجتمعت معا وبحرية وعلى نحو مختلط ومشوش فى الغالب"⁶، ومن هذه الزاوية فإن الدراسات البيئية حسب بعض الدارسين إن هي إلا عبثية فى البحث.

وهذه النظرية أصبحت مبتذلة، حيث انتشرت الدراسات البينية وأصبحت تمثل معتركا نقديا له فلسفته وأبعاده المعرفية العميقة، ولعل الحوار المستمر بين البنيويين والفلاسفة هو الذي جاء بالدراسات البينية ونجم عنه التحلي عن الإيديولوجيات الشمولية كالماركسية والوجودية، لذلك قال دولاكروا De Lacroix "ليس ثمّة مذهب بنائي بل إن هناك لقاء ذهنيا بصفة عامة، ومنهجيا بصفة خاصة بين مفكرين متباينين يعيشون معا عصرا واحدا بعينه، ألا وهو عصر انتهاء الإيديولوجيات، أو ربما انتهاء عصر النزعة الإنسانية من حيث هي صورة من صور الإيديولوجيا، ولذلك فما يجمع بين ليفي شتراوس وفوكو وألتوسير، وهم فرسان البنائية الأربعة، إنما هو ذلك المشروع العلمي الذي أرادوا تطبيقه على معرفتنا الإنسانية"⁷، فالبنوية وهي تعلن عن زمن انتهاء الإيديولوجيات، قد منحت النقاد فرصة الغوص في البنية العميقة للنص الروائي للكشف عن علاقاته النسقية والمعرفية المتعددة، فالرواية التي توظف بعض مواقف التاريخ وأحداثه قد تجعل الناقد يسعى للبحث من خلال ذلك إلى الربط بين السياسة السائدة في عصر من العصور أو تحديد ظاهرة معينة أخلاقية أو دينية أو اجتماعية أوحى بها ذلك الموقف أو تلك الأحداث، فروايات تاريخ الإسلام لجرجي زيدان تكتظ بما يموج به العصر العباسي أو الأندلسي مثلا من ثقافات متباينة تظهر من خلال الوصف والصراع والحوار بين الأحداث والشخصيات، والرواية بما تحمله من معارف مختلفة فهي منبع أصيل يعج بالمعارف وتتطلب عملية حفر وتنقيب عن مكنوناتها وخباياها وما تنطوي عليه من أساطير يمكن من خلالها تفسير ظاهرة إنسانية أو تحديد هيمنة إيديولوجية سادت في وقت من الأوقات، وليس هذا فحسب بل إن عملية التنقيب عن طريق النقد المنفتح على الدراسات البينية من شأنه أن يجلي أبعاده لا قبل للدراسات السابقة بها، ومن بين الأعمال الروائية المتعلقة بالجانب التاريخي روايات إبراهيم الكوني الذي استطاع أن يعكس في رواياته طقوسا للصحراء تجل عن الوصف من خلال استنطاق العادات والتقاليد واللغات واللهجات السائدة في الصحراء، وكذلك روايات نجيب محفوظ وما تزخر به من صور حياتية ومعيشية وبينية للمجتمع المصري عبر فترات التاريخ العثماني وما بعده، وقد كان واسيني الأعرج أحد المبدعين الروائيين الذين وظفوا التاريخ في رواياتهم أيضا، وذكر هؤلاء لا يعني أن الإبداعات الروائية المتعددة في العالم العربي ليست ميدانا خصبا للدراسات البينية، ولعل الرواية في العصر الحديث تمثل مصدرا وحققا معرفيا هاما للدراسات البينية، ومن ثمّة فإن التوجه النقدي بدا ينحو في هذا الاتجاه الذي كان موصودا من قبل.

ونظرا لتوفر الموضوعات البينية في الرواية المعاصرة، فقد أصبح حريا بالنقد أن يخوض في خضم هذه الدراسات التي لا تزال بكرا، لأن الدراسات السابقة في هذا المجال لا تزال شحيحة ولم تتجاوز البدايات، فالبنية في الوقت الراهن تمثل ظاهرة معرفية من حيث الموضوع والمنهج، ولعل مفهوم الخطاب الذي يمكن اعتباره مفتاحا لهذه الدراسات يعني بشكل ما، أننا أمام معرفة جديدة تتطلب الغوص في مجالات الثقافات الماضية لتقدم وصف جديد مثلما نجده عن ميشال فوكو⁸. فالنقد وهو يتوجه في الوقت الراهن للانفتاح على الدراسات البينية، وبتركيزه على الخطاب الروائي الذي هو ميدان خصب أو مجال واسع، فإنه سيقدم مادة وافرة للدراسات النقدية المعاصرة.

والناقد الذي يتحمل مسؤولية البحث في هذا الحقل المعرفي ينبغي أن يلم بالمادة البحثية إلماما كاملا، لإدراك ما يتضمنه الخطاب الروائي من معارف شتى تتماس وتتعلق داخل البنية التحتية الخفية للنص، وهذا يتطلب جهدا مضاعفا من الناقد في تحليل الدلالات البينية أو بالأحرى التعالقات والرموز التي تربط أو تشير إلى شبكة من التقاطعات والتشاكلات داخل العمل الروائي، ولا يمكن أن تؤدي هذه الدراسات النقدية أكلها وثمارها إلا إذا اعتمد الناقد على الخاصية الكلية والتكاملية لإدراك مستويات التشابكات المعقدة الداخلية، وهذه الكلية تعني "في النهاية بشبكة العلاقات الوظيفية المتبادلة التي تنشأ بين جميع الأنظمة"⁹، وهذه الشبكة من العلاقات الوظيفية لا تقتصر على الأنساق اللغوية في تعالقاتها الوظيفية، كما يرى البينيون، وإنما يمكن توسيعها إلى جوانب معرفية أخرى تتسم بسمة التعالق والتشاكل والتبادل في مختلف المواد، وإذا كان النقد البيني يركز على اللغة في علاقاتها المخائنة، فإن النقد الذي يعنى بالبحث عن العلاقات البينية يتجاوز التحليلات النسقية البنيوية إلى غيرها من التحليلات المعرفية المتعددة والمتنوعة، وعلى هذا فإن النقد بهذه الخطوة يكرس مجالا أوسع للدراسات النقدية المعاصرة، ويوسع ليفي شتراوس نظريته في تفسير المظاهر المختلفة في النص، فهي لا تقتصر على الصيغ اللغوية فحسب، لكن تتعدى إلى الواقع، ومن ثمة فإن التقابل بين التاريخ والبنية عند ليفي شتراوس كان خطوة مهمة في مسار الدراسات البينية، فتلك المظاهر المختلفة "كمجموعة من النظم الرمزية في المستوى الأول منه تقع اللغة وقوانين الزواج والعلاقات الاقتصادية والفن والدين والعلم، وكل هذه المظاهر تستهدف التعبير عن بعض مظاهر الواقع الاجتماعي والفيزيائي"¹⁰.

3. الحوارية بين النقد البيني والرواية:

إن الناقد الذي يضع بين يديه الأعمال الروائية التي تتصف بالعمق الفكري والحضاري والاجتماعي، فإنه يستطيع أن يحدد تلك العلاقات البينية من مضامين الأعمال الروائية المعتمدة، ومهما كانت النقود التي تجرأت على هذه الدراسات المتعلقة بالرواية إلا أنها لم تصل إلى المستويات القصوى في تحديد تلك العلاقات الكثيفة المعقدة المندسة في طبقات وطيات الأعمال الإبداعية والروائية، لذلك فإن أعمال أولئك الروائيين الكبار لا تزال معزولة عن البحث في هذا المجال، وهذه الخطوات في النقد بانفتاحه على الدراسات البينية لا تزال بطيئة إلى حد أقصى، ولعل النقد ذاته لم يسع إلى اقتحام الأعمال الروائية بشكل كاف ولم يعن بشكل كبير بهذا الاتجاه، ويرى البينيون خاصة أن الوظيفة الرمزية للغة تفرض هذا النوع من الدراسة البينية، نظرا لعلاقة مختلف المجالات المعرفية فيما بينها، وقد مكن الوعي الجديد باللغة وبمفهوم البينية إلى إدراك التشابه بين الموسيقى والأسطورة لأنهما يتضمنان بنيات متشابهة، حيث يمكن مد نطاقها إلى الرقص والشعر وغيرهما من الفنون.¹¹

وهذا الوعي أو الانفتاح من البنيوية التي كانت تعمل على سجن اللغة من شأنه أن يجعلها تقترب أكثر فأكثر من النقود التي تعنى بالدراسات البينية، ومن ثمة فهذا التطور أو هذه الخطوة المستجدة من البنيوية تعد سبقا

نقديا حقيقيا، ولعل الدراسات المحيطة للغة وعدم الخروج عنها أجبرها في نهاية المطاف لتستقبل ما تهم به المناهج الأخرى من موضوعات حتى تضمن فاعلية البقاء والسيورة مع تطور المناهج النقدية.

ومن خلال هذه الخطوة في الدرس البنيوي يستطيع الناقد أن يحدث موازنات ومقارنات بين مضامين الرواية المعاصرة المكتظة والحافلة بتلك العلاقات البينية في صميم العمل الروائي، والناقد البنيوي ليس معنيا وحده بهذا النمط من الدراسة، ولكن مهما كان الناقد ومنهجه واتجاهه فإنه يستطيع أن يظهر تلك العلاقات ويحللها وفق منظوره الخاص، ومعنى هذا أنه ليس هناك مزاج نقدي خاص يستولي على هذه الدراسة أو يحتكرها لنفسه.

ولعل البلاغة العامة أو البلاغة الجديدة وهي ملتقى التخصصات، وقد نجحت عن اللقاء بين الفلسفة والبلاغة، وضمت كل المعارف والفنون، وهو المبدأ الذي تقوم عليه الدراسات البينية "وقد اعتمدوا في ذلك على أمثلة مستقاة من مختلف الفنون والثقافات ومراحل التاريخ مما جعل عملهم الذي يحو الحدود الكلاسيكية بين العلوم والفنون عملا منقطع النظير"¹²، ورغم ما كان للبلاغة العامة أو الجديدة من تأثير بالغ في هذه الدراسات، إلا أنه لا يمكن اعتبارها هي التي اجترحت الدراسات البينية ولكنها أسهمت بشكل ما في إنشائها، غير أن النقد الروائي الذي يتناول الأعمال الروائية بالكشف عن الروابط والعلاقات بين الفنون والمعارف المحتواة داخل الرواية ينبغي أن يؤسس على قواعد نقدية جديدة ومبادئ معينة تجعل منه أدق وأولى من غيره بالتوسع في هذا المجال أي مجال نقد الرواية من منطلقات دراسية بينية علمية، وهذا التخصص للنقد يجعله جديرا بالتحليل العميق المفصل والمركز على الجانب العلائقي للمعارف داخل الرواية في عملية نقدية متكاملة، وهذا لا يعني سد الذرائع على مختلف مناهج النقد لتبحث في الموضوع من زاوية نظرتها المنهجية، إلا أن التخصص المتعدد البعيد عن المفهوم الكلاسيكي يتيح الفرصة للنقاد في الدراسات البينية لتشريح العلاقات وتفكيك المضامين البينية في الأعمال الروائية التي تنتظر البحوث الجادة المتخصصة، وهذا التخصص يحمل الاختلاف في ذاته، ويشبه العولمة أو ما بعد الحداثة في نظرة تكاملية، معرفية شمولية، وتخضع الرواية بذلك لهذا النقد المتجاوز للخطية والأحادية، والذي تتقاطع من خلاله القيم والمفاهيم والفلسفات وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وغير ذلك من المعارف التي تحتويها الرواية.

إن التخصص البيني المتعلق بالأعمال الروائية ينبغي أن يكون مستقلا عن باقي الخطابات نظرا لخصوصية الرواية كفن مستقل عن الفنون الأخرى وإن كان يشملها، إلا أن هذا النقد قد لا يجد ضالته ومادته الخام إلا في الأعمال الروائية المصنفة في عداد الأعمال الكبرى، ومن هذا المفهوم أو هذا الطموح للنقد البيني، فإن ذلك يعطي دفعا مضاعفا للأعمال الروائية لتكون جديرة بالنقد البيني الذي يتطلب زحما معرفيا في العمل الروائي، كما يتطلب أيضا نمطا من النقاد الملمين بألوان المعرفة، ويمتلكون الكفاءة التامة في إجراء المقارنات والتحليل التي تغوص في صلب الشبكات البينية المعقدة داخل الخطاب الروائي، ولعل المرح التصورى هو الآلية الأساسية التي تمكن الناقد من القيام بهذه البحوث، لأن الخطابات المختلفة في الفضاءات الروائية المعقدة تستدعي ناقدًا يستحضر طاقة

ذهنية تصويرية فاعلة دقيقة، وقد أصبح ميدان السرد خاصة السرد الروائي يستدعي بالضرورة النقد البيئي أو الدراسة النقدية البيئية، وذلك لأن النتاج الروائي، الراهن ذاته المفعم بالتعالقات الثقافية والفكرية والفلسفية في كثير من الأعمال يفرض حتمية توجه النقد نحو الدراسة البيئية التي من شأنها أن تشرح وتحلل وتفسر طبيعة العلاقات والتشاكلات داخل النص، سواء أكانت تلك العلاقات والتشاكلات أحادية أم غير أحادية، ومن ثمة فإن انفتاح النقد على هذه النافذة أصبح أمراً مفروضاً، كما أن الروائي نفسه مجبر بأن يخرج من الأحادية التقليدية المتعالية عن التنوع والاقتباس وخلق الاتساق والانسجام مع المعارف والفنون الأخرى.

ومهما كانت البداية للنقد في هذا المجال قاصرة عن استيعاب تفسير المتعالقات في الأعمال الروائية الرائدة، إلا أن المرحلة الراهنة تتطلب العمل على هذا المحور الأساس من أجل خلق فضاء نقدي جديد لم يكن كائناً أو موجوداً في الدراسات الحديثة إلى وقت قريب.

وهذه الظاهرة الأدبية الجديدة أي التعالقات البيئية داخل الخطاب الروائي كانت نتيجة التصور الشبكي للفضاءات الذهنية التي تتفاعل وتشتغل بشكل دينامي داخل الذهن أثناء التفكير وعلى هذا الأساس تكون البيئية دليلاً على إمكانية التضافر والتعاون بهدف البحث عن الحقيقة¹³.

وانفتاح النقد على الدراسات البيئية لا يعني التركيز على التعالقات بين المعارف والفنون المعروفة كالشعر والتاريخ والفلسفة وغير ذلك، والبحث في تعاون هذه المعارف فيما بينها لتشكيل النص الروائي الإبداعي إنما يكون الانفتاح على أوسع نطاق ممكن، فيشمل كل شذرات المعرفة السابجة داخل النص المشكلة لذلك التنوع الفلسفي الداخلي العميق، والناقد الحصيف حين يركز آتله الشبكية الذهنية الشفافة يستطيع أن يرى ما لا يراه القارئ العادي، لذلك فإن عملية توصيف الدراسات البنيوية أو بالأحرى تحديداتها تحديداً دقيقاً أمر لا مناص منه حتى يدرك الناقد حدود اشتغاله في هذا الجانب النقدي، ولا شك أن اللغة الاستعارية تؤدي دوراً هاماً في فتح هذا الأفق النقدي المتعدد المتشابك، ومن دون اللغة الاستعارية لا يمكن تحديد تلك العلاقات الدقيقة "فالاستعارة هي المبدأ الحاضر أبداً في اللغة وحتى في اللغة الجافة للعلوم الراسخة لا يمكن أن نستغني عنها دون أن نعاني من بعض المصاعب، وفي الموضوعات الطبيعية شبه الفنية... فإن الصعوبة الأساسية الدائمة التي نواجهها هي أن نعرف طريقة استعمالنا إيها، وكلما مضينا في التجريد أكثر، ازداد تفكيرنا اعتماداً على الاستعارة"¹⁴، فالرواية القائمة على الأسس النقدية الصحيحة لا تخلو من عنصر الشعرية أو الجانب المجازي، لذلك فإن الشعرية أو بالأحرى الاستعارية أو التجاوز اللغوي من شأنه أن يثري تلك التلامسات والتماسات الشديدة الخفاء في العمل الروائي بين المعارف والعلوم والفنون المختلفة، وانطلاقاً من هذه المواصفات للعمل الروائي، الإبداعي المتكامل، فإن عملية النقد تصبح أكثر صعوبة وأشدّ عسراً في الربط بين الأجزاء التي تشكل الشبكة البيئية التي تشبه الشبكة الشريانية المعقدة في جسم الإنسان، ومن ثمة فإن الماسح الذي يكشف تعالقاتها ينبغي أن يكون أشدّ إضاءة وحساسية في

التقاط عقد التشابك والتعلق، فاللغة الاستعارية أو المجازية وهي تؤدي هذا الدور فإنها تستدعي المعرفة التامة بها بل والتحكم فيها حتى يستطيع الناقد أن يرى بعيونه الفاحصة تلك التقاطعات البينية المشكلة للنص الروائي. وتبقى قضية المصطلحات قائمة في هذا الإطار، لكون هذه الدراسة المستجدة كما ذكر آنفا لا تزال بكرا، ولا تزال البحوث في إطارها لم تكتمل أو لم تتضح بعد، ومن ثمة فإن الأعمال النقدية المنجزة مهما كانت تشكل بدايات موفقة إلا أنها تبقى في إطار البدايات الأولى، ومهما كان النقد متلكنا في خطواته في هذا المسار، فإن ذلك لا يرجع إلى قصور النقد في ذاته ولكن العملية متبادلة بين النقد والإبداع الروائي، وربما الجزء الأكبر يقع على عاتق المبدع الذي هو الكفيل بإيجاد الأعمال الناضجة التي يتناولها الناقد، إلا أن الميدان لا يكاد يسفر إلا عن القليل من الأعمال الروائية الإبداعية إذا استثنينا أعمال الرواد العالميين الكبار.

إن ما بعد الحداثة التي انبثقت من التعقيد والانظام تفرض هذا النوع من الدراسات البينية، لأن أهم خاصية لما بعد الحداثة هي التشظي الذي تميز به الفكر المعاصر انطلاقا من واقع اتصف بالتفكك والانفصال، وتبعاً لهذا الواقع فإن النقد والإبداع كليهما صارا يعبران عن هذا الواقع المضطرب الذي أصبح الزمن فيه مقتصر على لحظة واحدة وهي الآن الحاضر، حيث يتلاشى الماضي والمستقبل، ومن ثمة فإن أي عمل نقدي أو إبداعي ينبغي أن يشاكل هذا الآن المليء بالمفاهيم المتناقضة بما فيه من تكسرات وانقطاعات وخيبات أمل.

أما المصطلح النقدي في الدراسات البينية فينبغي أن يكشف عن خبايا العلم ومراجعة أسسه لتطابق الطرق البحثية الجديدة في الدراسات البينية، فالمصطلح "يقدم إضافة ثابتة على طريق استكشاف خبايا العلم وفحص الأسس المفهومية التي تقوم عليها قواعده"¹⁵.

فالناقد الروائي الذي يعتمد الدراسات البينية يتحتم عليه في زمن "ما بعد الحداثة" أن يجتهد في إيجاد الآليات الجديدة لهذه الدراسة ويثري بحوثه بالمصطلحات التي تسهل على الدارسين فتح الآفاق المستقبلية لهذا اللون الجديد من الدراسات، وربما الناقد الروائي أولى بالقيام بهذه المهمة من غيره لينشئ بحوثاً تتناول الموضوع بوعي أشمل باعتبار أن الفن الروائي هو الجنس الأدبي الأنسب الذي يمثل كل العناصر البينية الممكنة التصور، إلا أن الواقع المكرس ربما لا يسمح بالانتقال السريع نحو بناء نقد بيئي متكامل الأسس والمبادئ التي تعمل على زحزحة المفاهيم الثابتة الراسخة.

لا شك أن البحث في علاقة الرواية بالدراسات البينية يمكن من معرفة تقاطع المعارف والعلوم والنظريات ولملمة شمل الذاكرة الراهنة التي لها خيوط وشبكات ممتدة في عمق التراث، مع البعد عن الإعادة والتكرارية.

وعودة الرواية إلى صياغة التاريخ أو الماضي في آلية تصويرية وشبكة رؤية تفصل الأشياء عن بعضها بعضاً مع دمجها في قالب إبداعي مسألة تقوم على الوعي الناضج واستيعاب الراهن المتنوع والمتجذر في صلب المجتمع الذي ظل يريزخ تحت وطأة الأحادية والتكرار زمناً ليس بالقصير، حيث نتج عن ذلك نوع من التفكير المسطح وغير المركب، كل هذا يتم عن طريق ربط شبكة من التواصل البيئي بين النقد والإبداع الروائي.

وإلى جانب النظرية التواصلية التي أسهمت بشكل معين في نشوء الدراسات البيئية بما تتميز به النظرية من حوارية بين طرفين، فإن هناك مجالاً آخر أسهم في تثبيت الدراسة البيئية وهي ما سماه فوكوي ومارك تورنر شبكات الدمج التصوري وهي: "عملية معرفية كلية تقوم على القياس والتكرار والنمذجة الذهنية والمقولة التصورية والتأطير وتهدف إلى أغراض معرفية متنوعة تنشط أثناء التفكير"¹⁶، وعليه فإن ظهور هذه الدراسات البيئية لم يكن ناجماً عن فلسفة معينة أو مذهب محدد، وإنما جاء نتيجة إسهام عدة نظريات وأبحاث، ولم تظهر النظريات والبحوث كدرس نقدي مستقل إلا حديثاً في الآونة الأخيرة من القرن الواحد والعشرين، لذلك فهذه الدراسات لا تزال تتحسس طريقها لتجد لنفسها مجالاً نقدياً يحقق لها الاستقلالية عن باقي الدراسات الأخرى التي حددت مسارها طيلة عقد أو عقود من الزمن، وسيكون النقد خاصة النقد الروائي في إطار البحوث البيئية من أهم حقول الدراسات النقدية باعتباره المعبر الحقيقي عن عقلية الإنسان في زمن ما بعد الحداثة، والأعمال الروائية نفسها يمكن أن تحدث الطفرة أو القفزة التي يترقبها النقد، وهذا اللقاء بين المجالين النقدي والروائي يؤدي إلى فتح ذهنية المتلقي نحو فضاء نقدي جديد، حيث تتسع الدراسات وتعدد مجالاتها في تفسير واستنباط العلائق التي لا حصر لها بين المعارف والعلوم في النص الواحد.

ولعل الانتقال في تفسير الخطاب الروائي أو غيره من النموذج اللغوي والمحايثة اللغوية إلى الأنظمة العلامية التي توسع الرؤية تشمل مجالات كثيرة وتخصصات مختلفة منبثقة على شكل جزئيات متشظية ومتقلقلة في النص كما يحدث داخل الجزيء في المادة المكون من ذرات أو كما يحدث داخل الذرة نفسها وحركية النيوترونات والبروتونات داخلها، كذلك يحدث في العمل الأدبي والروائي بشكل خاص، فالدراسات البيئية تعمل على تحديد ما يزرع به النص من ألوان المعرفة، عن طريق اللغة المحللة الواصفة، وهذا الاتجاه يستطيع من خلاله النقد العربي أن يتخلص ويتخطى عملية التقليد التي دامت ردحا من الزمن.

الخاتمة:

تتمثل الخلاصة التي يمكن التوصل إليها في هذا الموضوع فيما يلي:

- حاجة النقد إلى الانفتاح عن الدراسات البيئية بهدف استيعاب الأعمال الروائية التي تكتنز بالمعارف المختلفة.
- تسليح الناقد بالمادة المعرفية الواسعة في مختلف أشكال المعرفة ليلم بشكل واسع بمضامين الأعمال الروائية المستحدثة.
- القدرة على تحديد التقاطعات بين المعارف في العمل الروائي.
- تكفل النقد بوضع أسس نقدية أكاديمية معرفية تحقق الدراسات الجادة، فلا يترك للأعمال النقدية الجزافية.
- التمكن من المقارنة والتحليل لتلك الشبكة من التعالق والارتباطات البيئية.
- الثقافة الملمة للمبدع من أجل إنجاز عمل تتوفر فيه تلك العلاقات البيئية بين المعارف.

هذه الدراسات من شأنها أن تدفع بعجلة النقد والإبداع في آن واحد نحو مستويات معرفية نقدية وإبداعية جديدة مفيدة في الحقل الأدبي النقدي العربي.

الهوامش:

- 1 - عبد الوهاب جعفر: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشال فوكو، من مقدمة المؤلف، ص أ، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1989،
- 2 - ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ج1، دت، ص5 وما بعدها.
- 3 - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، 1983، ص220.
- 4 - فاروق خورشيد: الرواية العربية، دار الشروق، بيروت، ط3، 1982، ص75.
- 5 - جون ليشته: خمسون مفكراً من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008، ص428.
- 6 - لينارد جاكسون: بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، تر: نائر ديب، دار القرد، دمشق، 2008، ص271.
- 7 - عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة، ص13.
- 8 - نفسه، ص47.
- 9 - محمد مجدي الجزيري: البنيوية والعولمة في فكر ليفي شتراوس، دار عرفة للطباعة، القاهرة، ط3، 1999، ص23.
- 10 - نفسه، ص32.
- 11 - نفسه، ص116.
- 12 - مجموعة مو: بحث في العلامة المرئية من أجل بلاغة الصورة، تر: سمر محمد سعد المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2012، ص9.
- 13 - إدغار موران: الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، تر: أحمد القصور ومنير الحجوجي، دار توبقال، المغرب، ط1، 2004، ص867.
- 14 - بول ريكور: الاستعارة الحية، تر: محمد الولي، القول لريتشاردز من مقدمة المترجم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2016، ص16.
- 15 - عبد السلام المسدي، المصطلحات المتصلة باللغة عند المتكلمين، أنموذج القاضي عبد الجبار، ندوة الدراسات المصطلحية والعلوم الإسلامية، ج2، جامعة سيدي محمد، الرباط، 1993، ص45.
- 16 - مجموعة مو: بحث في العلامة المرئية، ص15، 16.

قائمة المراجع:

- ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ج1، دت.
- إدغار موران: الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، تر: أحمد القصور ومنير الحجوجي، دار توبقال، المغرب، ط1، 2004.
- بول ريكور: الاستعارة الحية، تر: محمد الولي، القول لريتشاردز من مقدمة المترجم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2016.
- جون ليشته: خمسون مفكراً من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008.
- عبد السلام المسدي، المصطلحات المتصلة باللغة عند المتكلمين، أنموذج القاضي عبد الجبار، ندوة الدراسات المصطلحية والعلوم الإسلامية، ج2، جامعة سيدي محمد، الرباط، 1993.
- عبد الوهاب جعفر: البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشال فوكو، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1989.
- فاروق خورشيد: الرواية العربية، دار الشروق، بيروت، ط3، 1982.
- لينارد جاكسون: بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، تر: نائر ديب، دار القرد، دمشق، 2008.

-
- مجموعة مؤ: بحث في العلامة المرئية من أجل بلاغة الصورة، تر: سمر محمد سعد المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2012.
 - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، 1983.
 - محمد مجدي الجزيري: البنيوية والعولمة في فكر ليفي شتراوس، دار عرفة للطباعة، القاهرة، ط3، 1999.